## المحاضرة العاشرة: النزعة الصوفية في النص الشعري المعاصر

**مقدمة:**

لقد وجد الشعراء في المنحى الصوفي منفذا إلى عالم غير واقعي، شكل لهم ملاذا للخلاص، وبحثا عن المعادل الوجداني لكياناتهم المفعمة بالسُّمو، لأن التصوف جوهر فكري:« يُمثل مرحلة من مراحل تطور الفكر الديني، حيث تتدخل القوى العقلية في إثبات قدرتها على الإدراك إلى جانب النص الديني، إنّها حركة إيقاظ للقدرة التأويلية للتفكير الإنساني في مواجهة الكون وخفايا الإنسان وحقيقة الخالق وسبيل الوصول إليه.»، أما النزوع نحو الصوفي لدى الشعراء فهو حاجة فنية ونفسية وهو أيضا« استنباط مُنظّم لتجربة روحية، ومحاولة للكشف عن الحقيقة والتجاوز عن الوجود الفعلي للأشياء.» وبهذا فالشاعر يحاول أن يلج الأعمق، ويرتقي إلى الأسمى والأنبل، واعتلاء العوالم الأبدية المتعاقبة وحقائق الروح المُثلى بكل معانيها وتجلياتها، ذلك « أنّ الإنسان في الفكر الصوفي لا يعيش حالة من اللاوعي أو السلبية، بل إنّ الإنسان هو الحقيقة الأكثر حياة في هذا الوجود.»

يسعى الخطاب الشعري الصوفي إلى السمو بالذائقة الشعرية والقرائية، وتنزيهها عن المادية وقيودها، إنه خطاب متجاوز لمعاني الوجود المحسوس الملموس، إلى معاني الإنسانية المثالية النبيلة، لعله تحليق في سموات المُطلق اللامتناهي، وصعود في مدارج السمو نحو الكمالية المطلقة، حيث الخير المطلق والحب المطلق والتعالي المطلق، والزهد في كل مفسدة للروح النقية المكتملة.

### 1- التصوف في الخطاب الشعر العربي المعاصر:

يستجيب الخطاب الشعري العربي المعاصر لمطالب المتصوفة، من حيث الابتعاد عن أزمات العصر والرقي بالنفس والسلوك ضمن حدود الإبداع والكتابة، لأنّ الشاعر ابن بيئته، يبدع في لحظات الوجود لا في أوقات الفناء، فقد ينسحب من عالمه إلى عالم آخر لا يكاد يحس فيه إلاّ بذاته، تتولد عند الشعراء المتصوفة رغبة في البحث عن المجهول واللاّمرئي ، أو الانتقال إلى عالم مخصوص يكون فيه « البحث عن ما وراء المحسوس من أخصّ خصائص التصوف، ثم انتقلت هذه الخاصية إلى الأدب الصوفي، فصار البحث عن الحقيقة والنفاذ إلى صميم الأشياء وكشف ما وراء الطبيعة إحدى سمات الأدب الصوفي.» ولا تكتمل هذه الحقيقة إلا ضمن قالب روحي وشعوري مرتبط بالدين والعقيدة، ذلك أن الصوفية « حالة روحية يتصل فيها العبد بربه اتصال المتناهي باللاّمرئي، وهي تجربة لا تخضع لمنطق العقل الواعي، وإنّما هي حالة من حالات الوجود الباطن، لها رموزها الخاصة ومن ثم فهي غربة روحية واعتزال العالم البشري.» وإذا كان القالب الروحي لا يتم إلا بواسطة الديني والعقدي ، فإن الوجدان حالة إنسانية، حيث إن :« الصوفية تحاول وضع زمام الجسد في يد الروح بحيث يحقق الإنسان وجوده الروحي ويستشعر من المتعة الروحية والنشوة الوجدانية، ما يمكن أن يشكل تجربة بسيكولوجية تتسرب في عقله الباطن.» .

ويستتبع هذا نمط خاص في الكتابة له لغته ومصطلحاته وطريقه، وذلك من خلال إزاحة مألوف اللغة عن واقع التعبير وإيجاد لغة جديدة، من أحد مقوماتها الرمز والإيحاء، والذي مكّن الشاعر المتصوف أن يتعامل بها مع غيره. لأنّ التعبير بالرمز والإيحاء استطاع أن يقابل الحالة الصوفية التي لا تحدها الكلمة، والذي يمكن بالتالي أن يخلق المعادل التخييلي لهذه الحالة، إنّه تعبير لا يخاطب العقل بل القلب « فكما أنّ الحالة الصوفية لا يحكمها مقياس الحس والعقل، ليس في مقدور لغة الاصطلاح والوضع أن تُعبر عما يتناقض مع الاصطلاح والوضع».

وسنحاول أن نقف عند تجربة شعرية معاصرة تمثل هذا الفكر الصوفي، وهو تجربة أدونيس الشعرية ، بوصفها أهم التجارب الصوفية في الشعر العربي المعاصر.

**ثانيا أدونيس رمزا لشعراء التصوف:**

يجدر التنبيه بدءا أن أدونيس يقيم العلاقة بين الشعر والتصوف من خلال علاقات وجودية قارة بينهما، حيث يسعى الشاعر إلى ترجمة ما يشغله ترجمة صادقة عميقة، يحسُّ أنّه يترجم في الوقت نفسه ما يشغل الآخر، وكلامه يكون باسم الآخر وباسم ما بينهما من علامات، أي أنّ اندماج الذات لتشمل الآخر في كل من التجربتين الشعرية والصوفية هو ما ينتج العلاقة بينهما، أي أن أدونيس: « يأتينا بالشعر والتصوف معا ويُغرينا بالسماع والتأمل، بل إنّه يكاد يُقنعنا بأنّ لنا نحن أيضا كقراء أن نشارك في نشوة الصوفية والحلم الخارج والإسراء.»

وتتمس التجربة الصوفية عند أدونيس بالمزاوجة بين الكتابة الصوفية والدفاع عنها تنظيرا، ومحاولة فصل الكتابة عن أصولها الصوفية التراثية ، إلى حدّ ذهابه للقول : أنّ الكثير من القيم الحضارية العربية مستمر في الشعر الجديد لا تأتيه من النصوص الشعرية القديمة بقدر ما تنبع من نصوص التصّوف، و ذلك عن طريق تخطي المحسوس والانعطاف اتجاه حياتنا الباطنية، أو قل إنها وجهان لعملية واحدة. لأنّ تخطي المحسوس يتم في الآونة التي تنطوي فيها الذات باحثة في زوايا النفس عن ذلك العالم الحقيقي، ولأنّ هذه الحالات الذاتية مبهمة بقدر ما هي سريعة الانطفاء، فإنّ على الشاعر محاولة امتلاكها بواسطة اللغة الشعرية الموحية وليس بالبسط والتوضيح، ذلك أنّ الإبهام ذاته لذّة الاكتشاف الذي لا يُعطيك محصوله دفعة واحدة.

وعلى هذا كانت التجربة الصوفية عند أدونيس تجربة خاصة في الكتابة واللغة والتنظير، ربما يكون أساسها الأول اليأس الذي غلب على كثير من الشعراء المعاصرين، و خيبات الأمل التي أصابتهم، تسببت في تسرُّب الإحباط والكآبة إلى نفوسهم مثلما يشير أدونيس في حقول الكآبة قائلا:

« في العشب أرسم أيامي الحجرية

كاسرا صفحة المرايا

بين شمس الظهيرة، والماء في البركة الآدمية.».

وتتميز تجربة أدونيس في الاتحاد بكل مظاهر الوجود والاتحاد بمظاهر الكون، وهذا الاتحاد هو وسيلة لتخطي الكائن إلى عوالم ثانية خارج الحياة « في مناخ الأحلام والأفراح والحسرات والمشاعر والرؤى الغارقة في قرارة الروح حيث انبثاق كوني و طوفان يغسل الواقع ويُشيعُ الحياة والحلم والمادة، فتصرخ الأشياء وتتآخر.» فالشاعر رجل « تشع رؤياه إلى ما وراء أفق الإنسان العادي فتذهله ضخامة الكون وجماله.» وهذا ما يعطي لخطابة أبعادا تأويلية لا تتأتى للقارئ إلا من خلال فك الرموز والشفرات ، لأنّها تنشد آفاق المعارف الكونية الكبرى بظاهر الوجود وباطنه ومعرفة مكونات الفعل اللغوي وأدواته الإجرائية التي مست النص الصوفي، يقول أدونيس:

« وحّد بي الكون، فأجفانه تلبسُ أجفاني

وحّد بي الكون، بحريتي فأين يُبتكر الثاني

وجهي وأعماقي في الإله.»

**خاتمة**

ونخلص في الأخير إلى أنّ تجربة الكتابة الصوفية في الشعر العربي المعاصر، هي محاولة تجاوز ضيق العالم الجديد، والتطلع إلى مُداعبة أسرار النفس الباطنية في صراعها مع مقتضيات الحياة الاجتماعية، و مهما تغيرت أشكال الطرح الصوفي في النصوص الشعرية، يبقى جوهرها واحد، وهو السعي نحو حياة أفضل وغد أجمل وفكر أوسع ، لأنّ « هذا الميدان خير ميدان تتفتح فيه ذاتية الشاعر وفرديته، فهو ينفصل عن المجتمع ظاهرا ليعيش آلامه التي هي نفسها آلام المجتمع، ثم إنّ هذا التصوف محاولة للتعويض عن العلاقات الروحية والصلات الحسية التي فقدها الشاعر وتلطيفا من حد المادية الصلب الخشن».

لقد حاولت النزعة الصوفية رفض حدود الواقع وتجاوز الملموس الحسي إلى المثالي المتعالي، كما استعانت بالرمزية التي تجد كل ما في الأرض رمزا ومعنى، والسريالية التي تخترق حصار العالم المادي وتنطلق إلى أفاق الشعور والفكر والخيال، والتجريدية التي تجرّد الإنسان من كل الاضطرابات والتفاهات المشتتة له وتركزّ بصره على معنى الوجود وهدف حياته، والميتافيزقية التي تؤكد الكيان الروحي للإنسان بجانب كيانه المادي.